أميركا على مفترق طرق

صبحي غندور*

تتهيّأ أميركا (حكومة وشعباً) لدخول حربٍ أسماها البعض ب"حرب القرن ٢١" نظراً لأنّها أوّل حربٍ تدخلها أميركا في مطلع القرن الجديد وتجرّ من ورائها العديد من دول العالم عن اختيار أو اضطرار.

لكن هذه "الحرب الأميركية" القادمة هي أشبه بالحرب مع الأشباح حيث "العدوّ" في كلّ مكانٍ تختاره أميركا أو تعتقد أنّه ملجأ للجماعات الإرهابية، وسيكون ذلك سيفاً ذي حدّيْن بالنسبة لأميركا: فمن ناحية، هو مسألة إيجابية للأميركيين لأنّ عدم تحديد "مكان" العدوّ يجعل من السهل تحديد موعد انتهاء الحرب فلا يرتبط الأمر باحتلال بلدٍ ما أو بإسقاط نظامٍ معيَّن، لكن أيضاً عدم تحديد المكان هو مسألة سلبية للأميركيين لأنّ "حلفاء" أميركا في هذه الحرب سيتحددون تبعاً للأمكنة التي ستختارها واشنطن مسرحاً لعملياتها الحربية.

وستجد إدارة الرئيس بوش الآن صعوبة كبيرة في تكرار تجربة الرئيس بوش الأب حينما أقام تحالفاً دولياً كبيراً عام ١٩٩١ من أجل إجبار الجيش العراقي على الانسحاب من الكويت. فما كان واضحاً عام ١٩٩١؛ من حيث هوية "العدو" ومكانه وإمكاناته، ومن حيث الهدف المحدّد للتحالف، والمرجعية الدولية له (مجلس الأمن)، كلّها عناصر مفقودة الآن ولا يمكن توفّرها بحكم أنّ "العدوّ" هو حالة وليس نظام أو كيان.

الإرهاب هو حالة غير متفقٍ بعد على كلّ مفاهيمها ومضامينها، لذلك تُصبح الأولوية الدولية الآن هي الاتفاق على مفهوم الإرهاب قبل تشكيل تحالفٍ دوليٍّ لمحاربته.

حتماً، ما حدث في نيويورك وواشنطن هو عمل إرهابي كبير ومأساة إجرامية بكلّ التفاصيل والأبعاد والنتائج، ولن تجد واشنطن من يختلف معها على ذلك، وعلى ضرورة معاقبة من خطّط لهذا العمل الإرهابي الذي لم يسبق له مثيل في داخل أميركا أو خارجها، لكن ستجد واشنطن من يختلف معها حول كيفية الردّ وحدوده وأمكنته، وأيضاً حول مدى شمولية مفهوم الإرهاب لدى الأميركيين. فالولايات المتحدة ما زالت تعتبر أنّ أيّ عملٍ عسكريٍّ ضدّ الجيش الإسرائيلي هو عمل إرهابي حتى لو كان هذا الجيش الإسرائيلي موجوداً بشكل احتلالٍ على الأراضي اللبنانية أو الفلسطينية.

قد تتفهّم بعض الدول والهيئات الدولية (بل والعربية) رأي واشنطن في العمليات العسكرية ضدّ مواقع إسرائيلية مدنية وقد ترى معها أنّ هذه العمليات هي في خانة "الإرهاب"، لكن ذلك سينطبق على إسرائيل نفسها التي مارست وتمارس العدوان الوحشي على المدنيين العرب الأبرياء في أكثر من زمانٍ ومكان، وخاصةً الآن في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ثمّ، ألم تكن واشنطن ضدّ المقاومة اللبنانية للاحتلال الإسرائيلي رغم أنّ هذه المقاومة امتنعت عن القيام بأيّة عملياتٍ عسكرية خارج الأراضي اللبنانية المحتلة فلم تلاحق الإسرائيلي في الخارج ولا حتى في داخل إسرائيل نفسها، واكتفت المقاومة اللبنانية بمواجهة المحتلّ الإسرائيلي وعملائه فوق الأراضي اللبنانية المحتلة..

أيضـــاً، ألم يحفل التاريخ العسكري الأميركي الحديث والمعاصر بضرباتٍ عسكريةٍ ضخمة ضدَّ المدنيين في أكثر من مكانٍ بالعالم حاربت فيه القوات الأميركية؟

إذن، فالســـؤال الأهم قبل أن تدخل أميركا حربها الجديدة ضدَّ "الإرهاب" كعدوّ، هو تحديد ماهيَّة "العـــدو" ومفهـــوم الإرهاب نفسه حتى لا يختلط بتسمية الإرهاب حقّ المقاومة لدى الشعوب الخاضعة للاحتلال، وهو حقٌّ مشروع بكافة الشرائع والمعايير الإنسانية.

ومـــن واجب دول العالم اليوم – ومن ضمنها الأطراف العربية – وهي تتضامن مع أميركا في مصابها الأليم (هذا واجب طبعاً تجاه "ربّ العائلة" الدولية الآن !) أن تنصح أميركا بالاتفاق معها على مفهوم الإرهاب أولاً ثمّ التحالف معها على مواجهته. ولعلَّها الآن فرصة مناسبة جداً لأن تكون الدورة الحالـــية للأمـــم المـــتحدة هي دورة تحديد "**مفهوم** الإرهاب" وأن تتقدَّم جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة الوحدة الأفريقية ومجموعة دول عدم الانحياز بمشاريع أوراق تفرز ما بين مقاومـــة الاحـــتلال وبين أعمال الإرهاب الإجرامية كالتي حدثت في أميركا وفي أماكن أخرى عديدة بأفريقيا وآسيا وأوروبا.

أمَّـــا إذا أصـــرَّت واشنطن على جعل نفسها "المرجعية القاموسية" لمفهوم الإرهاب، فإنّ ذلك لا يبشّر خيراً بمستقبل العالم ككل إذ أنّ السفير الأميركي الجديد في إسرائيل أكَّد، في اليوم التالي لفاجعة نيويورك وواشنطن، أنّ أميركا وإسرائيل تواجهان معاً الإرهاب !!

ولعـــلَّ من الأفضل أن تمارس الإدارة الأميركية الحالية ما مارسته إدارة الرئيس بوش الأب من ضـــغوطٍ علـــى إســـرائيل لكي تبقى خارج التحالف الدولي الجديد، المطلوب أميركياً الآن، لأنّ ساحة العملـــيات العســـكرية الأميركية ستكون على أراضٍ تابعةٍ لبلدانٍ إسلامية وفي دائرةٍ جغرافيةٍ وثقافية أوسع بكثير من دائرة حرب الخليج عام ١٩٩١.

فـــإذا أدركـــت واشـــنطن مخاطر الاندماج مع "المفاهيم" الإسرائيلية للإرهاب، وإذا جعلت الأمم المـــتحدة هـــي المرجعية لذلك وليس التحالف مع إسرائيل، فإنّها ستنجح في تحديد أمكنة "العدوّ" وفي تحديـــد وتقلـــيص إمكاناتـــه أيضاً، وفي جعل الدائرة الإسلامية العالمية دائرة متفهمة للمفهوم الدولي للإرهـــاب وســـتكون بمعظمهـــا دائرة صديقة ومتعاونة دون ضغوطٍ شعبيةٍ معاكسة لإرادة الحكومات المضطر بعضها للدخول في الحلف الدولي الجديد.

أمَّـــا الطريق الآخر المتاح أمام أميركا الآن، فهو طريق القوة غير المستندة إلى شرعيةٍ دولية أو إلـــى حســـاباتٍ دقـــيقة، واتجاه هذا الطريق محفوف بالمخاطر العسكرية والسياسية والثقافية، ونتائجه ستكون أليمة على العالم كلّه.

مفترق الطرق الداخلي:

أميركا هي أيضاً أمام مفترق طرقٍ داخلي، كما هي سياستها الخارجية غير واضحة المعالم بعد. فأمـــيركا "الداخـــل" تعـــيش الآن مـــرحلة تحوّلٍ بمختلف أبعادها السياسية والأمنية والاقتصادية والثقافية.

ويتصارع في أميركا الآن اتجاهان: الأوّل، عنصري يرى بأنّ الهجوم الإرهابي الذي حصل على أميركا هو هجوم "إسلاميّ" الدين، "عربيّ" الجنسية، "آسيوي" القارّة وتحديداً من بلدان العالم الإسلامي في آسيا.

والاتجاه الثاني، يرى ما حدث أشبه ما يكون بصفّارة إنذار تدعو الأميركيين إلى فهم أفضل للعالم ولِما يجري حولهم بعد عقودٍ من الجهل ب"الآخر" الموجود خارج أميركا. اتجاه يدعو إلى التساؤل عن الأسباب التي دعت بحوالي عشرين شخصاً إلى الانتحار بتفجير أنفسهم من أجل قتل أكبر عددٍ من المدنيين في أميركا.

لكن، ورغم الحالات العنصرية التي ظهرت في أكثر من مكان ضدّ الجاليتين العربية والإسلامية في أميركا، فإنّ أميركا لم تكن موحّدةً في تاريخها كما هي موحدة الآن بعد هذا الهجوم الإرهابي الأخير.

من كان يُصدّق أنّ أميركا تتوحّد بهذا الشكل بعدما انقسمت على نفسها سياسياً في الانتخابات الأخيرة، وعانت لأسابيع طويلة من مشكلة فرز الأصوات التي تقرّر من هو رئيسها، ثمّ آثار تلك الأسابيع على الصعيدين الاجتماعي والسياسي بين نصف المجتمع ونصفه الآخر ؟!

ومن كان يُصدّق بأنّ الرئيس بوش، الذي أمضى الأشهر الماضية محاولاً رفع نسبة شعبيته فوق ال٥٠% حسب الاستطلاعات السابقة، يحصل الآن على تأييدٍ شعبيٍّ أميركي تجاوز ال ٨٥% ووصل إلى ٩١% في استطلاعات اليوم الرابع بعد الهجوم الانتحاري؟!

إدارة بوش تتمتّع الآن بتأييدٍ شعبيٍّ أميركي وبدعمٍ من مجلسيْ الشيوخ والنواب ومن الإعلام الأميركي في مستوياتٍ لم تحلم بها قطعاً قبل الهجوم الأخير .. فربَّ ضارّةٍ نافعة !!

أيضا، "الوطنية الأميركية" تصاعدت إلى حدٍّ لم تعرفه من قبل خلال الحروب التي خاضتها أميركا سابقاً في أكثر من مكانٍ بالعالم.

ومع هذه "المظاهر الاتحادية" القوية التي تعيشها أميركا، ومع انتعاش "الوطنية" الأميركية والاعتزاز الكبير بالعلم الأميركي كرمزٍ لها، ازدادت فجأةً ظاهرة الاهتمام بالدين وبزيارة الكنائس فتحوّلت أميركا خلال أيامٍ قليلة من سمة العلمانية إلى مجتمع شديد الارتباط بالدين والتمسّك بالصلاة والعبادة !!

لقد أحدث الهجوم الإرهابي على أميركا ردّة فعلٍ لدى الأميركيين جعلتهم أكثر "وطنية" وأشدّ إيماناً بالله، كما دفعتهم إلى الوقوف صفّاً واحداً الآن خلف قيادتهم السياسية بعد أن كانت أميركا تعاني منذ أقلّ من سنة انقساماً سياسياً حادّاً وأزمة انتخاباتٍ دستورية لم تعرفها في تاريخها السابق كلّه.

لقد قال الرئيس الأميركي جورج بوش أنّ ما حدث في ١١ سبتمبر/أيلول هو امتحان لأميركا. وهذا صحيح، لكن هو أيضاً امتحان قاسٍ للرئيس نفسه ولإدارته الجمهورية في سنتها الأولى الآن. فالقرارات التي ستأخذها هذه الإدارة في الفترة القريبة القادمة هي قرارات تمسُّ مصير العالم كلّه ومن ضمنه أميركا.

ستكون الأمّة الأميركية أمام مفترق طرقٍ يتناقض أحده مع الآخر:

- توظـيف مـا حـدث لبناء وحدةٍ وطنيةٍ أميركيةٍ لا تميّز بين أتباع دينٍ وآخر، ولا بين أصولٍ عرقيةٍ على أساس لونٍ أو ثقافة ..

- أو السـير في الطريق الآخر الذي يحطّم وحدة النسيج الأميركي والذي هو نسيج متعدّد الأديان والطوائف والأعراق والثقافات..

قـبل ١١ سـبتمبر ٢٠٠١ كانت حروب أميركا تحدث على غير أرض أميركا، والآن ستدخل أمـيركا حرباً ضدّ الإرهاب الذي مصدره ، بالنسبة للمواطن العادي الأميركي، الإسلام كدين والعرب كأوطان .. ولربما يكون هذا هو حال المواطن العادي الأوروبي والأوسترالي أيضا.

أطـنان من الكتب والمقالات زرعت في نفوس وعقول الأميركيين والغربيين عموماً خلال العقد الماضي عن "صراع الحضارات" ..

عشـرات الحوادث الإرهابية حدثت في الغرب خلال السنوات الماضية كانت الملامة فيها على "جماعاتٍ إسلامية وشرق أوسطية" ..

آلاف من المؤسسات الإعلامية الأميركية والغربية تغسل دماغ المواطنين ب"مسامحيق إسرائيلية" صباحاً ومساءً ..

عشرات من البلدان الإسلامية تعيش أزماتٍ سياسية واقتصادية وأمنية تهجّر المزيد من مواطنيها إلى دول الغرب ...

هذا هو المزيج القائم الآن بعد التفجير الإرهابي في أميركا عشيّة الردّ الأميركي المتوقّع عليه .. فإلى أين يصل الرد .. ما هي حدوده .. ومن هو المستهدَف بالجملة أو بالمفرّق؟؟

أسـئلة تخصُّ العالم كلّه .. وهي من اختصاص العالم كلّه .. لكنْ المجيب الوحيد سيكون الآن: واشنطن. فأميركا الآن هي كأسد الغابة الجريح، والعالم يسمع أزيره الآن قبل الانتقام. فلقد تحوّل العالم إلى غابة!

اللافـت للانتـباه في هذه الفترة التحوّلية للعالم أنّ أصوات العداء بين "الشرق الإسلامي" وبين "الغـرب المسيحي" تزداد بينما إسرائيل (التي هي "جغرافياً" في الشرق، و"سياسياً" في الغرب، وتنتمي إلـى حالةٍ دينية "لا شرقية إسلامية ولا غربية مسيحية") ستكون المستفيد الأكبر من صراعات الشرق والغرب في "النظام العالمي الجديد"!!

٢٠٠١/٩/١٥

* مدير "مركز الحوار العربي" في واشنطن
alhewar@alhewar.com